ردمد EISSN 2600–6324 / ISSN 2170-1636 / الإيداع القانوني: Depot Légal 1156 -2014

مصادر أبي العباس المقري في كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ابن حيان القرطبي نموذجا.

Sources of Abi Abbas Al-Maqri in the book Nafh al-Tayeb from Ghosn al-Andalus A-Ratib: Ibn Hayyan al-Qurtubi as a model

المؤلف المرسل، هاجر بوباية- BOUBAYA Hadjer صص97- 111
طالبة دكتوراه ل.م.د- قسم التاريخ وعلم الآثار- كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية- جامعة وهران1 أحمد بن بلة
البريد الإلكتروني، hboubaya1987@gmail.com
دة. تواتية بودالية- أستاذة محاضرة أ تاريخ المغرب الإسلامي- قسم التاريخ - كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية- جامعة مصطفى اسطمبولي- معسكر
البريد الإلكتروني، boudalia.touatia@univ-mascara.dz

تاريخ استقبال المقال:2019/09/03 تاريخ المراجعة: 2019/09/03 تاريخ القبول:2019/09/04

الملخص: من خلال هذه النصوص المختارة من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، الذي كتبه أبو العباس أحمد المقري تتحدد القيمة العلمية لهذا كتاب، الذي على الرغم من تأخر مؤلفه عن تاريخ الأحداث التي كتب عنها إلا أن له أهمية كبيرة في تأريخ الأندلس عامة وابن الخطيب خاصة بالنظر إلى اعتماده على كثير من المصادر الأصلية التي تعود إلى مؤرخي بلاد الأندلس في عصر الأحداث، ولاسيما تلك التي هي في عداد المصادر المفقودة أو المبتورة، وبخاصة منها تلك النصوص الهامة التي حفظها أبو العباس المقري لأهم مؤلفات حامل لواء التاريخ بالأندلس ابن حيان القرطبي، ومنها على وجه الخصوص كتابية المفقودين المتين وأخبار الدولة العامرية، ومن خلاله كتاب النفح يمكننا ترميم الكثير من النصوص المتعلقة بالتاريخ الأندلسي، وحتى إعادة الحياة لبعض المصادر التاريخية المفقودة.

إن النصوص التي اخترناها كنماذج للتأكيد على أهمية محتويات كتاب المقري، والتي وفرت لنا مصدرًا مهمًا يساعد الباحثين على سدّ العديد من الثغرات في تاريخ الأندلس، ومساعدتهم في كتابة تاريخ التواجد الإسلامي في العدوة الأندلسية.

الكلمات المفتاحية: نفح الطيب؛ التاريخ؛ الأندلس؛ مصدر؛ المقري.

Abstract: *Through these texts selected from the book Nafh A-Tayeb from Ghosn al-Andalus al-Ratib wa Dhikr Waziriha lisan al-Din Ibn al-Khatib, written by Abu al-Abbas, Ahmad al-Maqri, identifies the scientific value of this book, which despite its author's delay on the history of the events that he wrote about it is of great importance in the history of Al-Andalus and Ibn al-Khatib, especially in view of its dependence on the sources that date to the countries of Andalusia, especially those which are among the missing sources, including important texts preserved by Al-maqri of the works of the banner holder of the Andalusian history, Ibn Hayyan al-Qurtubi, through which he can write his research on this date, and even re-sent some of the missing sources.*

The texts that we selected as models to emphasize the importance of the contents of the book Al-maqri, which saved us an important source material that helps researchers fill many gaps in the history of Andalusia, and help them to a full history of the Islamic presence in al-Andalus.

Keywords: *Nafh al-Tib; History; al-Andalus; sources; Al-Maqri*

مقدمة: يعتبر كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب" لمؤلفه أبي العباس المقري(ت1041هـ-1631م) من المصادر التاريخية الهامة التي لا يمكن لأي باحث في التاريخ الأندلسي أن يستغني عنها في كتاباته التاريخية، حيث يكتسي هذا الكتاب أهمية كبيرة إذ يعتبر موسوعة تاريخية أرّخت للحياة الفكرية والأدبية والاجتماعية للعدوة الأندلسية من لدن افتتاحها سنة 92هـ-711م إلى غاية سقوط آخر معاقل المسلمين فيها على يد الإسبان سنة 897هـ-1492م، وتكمن أهميته أيضا في كونه حفظ لنا نصوصا تاريخية هامة استقاها من أمهات المصادر التاريخية التي عُنيت بالتاريخ الأندلسي، وبخاصة منها تلك المصادر التي تعد في خانة ما فقدناه جراء الأوضاع التي مرت بها العدوة الأندلسي، ومنها على وجه الخصوص الحرق الذي تعرضت له كثير منها على إثر سقوط غرناطة.

ومن خلال هذا المقال سأحاول تسليط الضوء على ما اقتبسه المقري من كتابات عُمدة مؤرخي الأندلس ابن حيان القرطبي، وبخاصة من كتابه المفقود أخبار الدولة العامرية، وقبل ذلك سأحاول التعريف بأهم الأسباب التي دفعت المقري لتأليف هذا الكتاب.

دوافع تأليف كتاب نفح الطيب: من الأسباب التي دفعت المقري لتأليف كتاب نفح الطيب إعجابه بالأندلس وشغفه بها، وإعجابه وحبّه لشعرائها، وبالخصوص لسان الدين ابن الخطيب، ويظهر هذا جليا من خلال مقدمة كتابه التي أبرز فيها دوافع تأليفه لهذا الكتاب حيث قال: "وكنا في خلال الإقامة بدمشق المحوطة، وأثناء التأمل في محاسن الجامع والمنازل والقصور والغوطة، كثيرا ما ننظم في سلك المذاكرة درر الأخبار الملقوطة، ونتفيأ من ظلال التبيان مع أولئك الأعيان في مجالس مغبوطة، نتجاذب فيها أهداب الآداب، ونشرب من سلسال الاسترسال، ونتهادى لباب الألباب، ونمد بساط الانبساط، ونسدل أطناب الإطناب، ونقضي أوطار الأقطار، ونستدعي أعلام الأعلام، فينجرُّ بنا الكلام والحديث شجون، وبالتفنن يبلغ المستفيدون ما يرجون، إلى ذكر البلاد الأندلسية، ووصف رياضها السندسية، التي هي بالحسن منوطة، وقضاياها الموجهة التي لا يستوفيها المنطق...

فصرت أورد من بدائع بلغائها ما يجري على لساني من الفيض الرحماني، وأسرد من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني، صبَّ الله عليه شآبيب رحماه وبلَّغه من رضوانه الأماني، ما تثيره المناسبة وتقتضيه، وتميل إليه الطباع السليمة وترتضيه، من النظم الجزل، في الجد والهزل والإنشاء، الذي يدهش به ذاكرة الألباب إن شاء الله، وتَصرُّفه في فنون البلاغة حالي الولاية والعزل، إذ هو- أعني لسان الدين- فارس النظم والنثر في ذلك العصر، والمنفرد بالسبق في تلك الميادين بأداة الحصر، وكيف لا ونظمه لم تستول على مثله أيدي الهصر، ونثره تُزري صورته بالخريدة ودمية القصر؛ فلما تكرر ذلك غير مرة على أسماعهم، لهجوا به دون غيره حتى صار كأنه كلمة إجماعهم، وعَلق بقلوبهم، وأضحى منتهى مطلوبهم..."[1].

أما السبب الرئيس لتأليف الكتاب فيتمثل في طلبه من طرف أحد أعيان دمشق، يقول المقري: "... فطلب مني المولى أحمد الشاهيني إذ ذاك، وهو الماجد

المذكور، ذو السعي المشكور، أن أتصدى للتعريف بلسان الدين في مُصنّف يُعرب عن بعض أحواله وأنبائه...؛ فأجبته أسعى الله قدره الكبير، وأدام عرف فضائله... بأن هذا الغرض غير سهل، ولست عَلم الله له بأهل، من جهات عديدة، أولها قصوري عن تحمل تلك الأعباء الشديدة إذ لا يوفي بهذا الغرض إلا الماهر بطرق المعارف السديدة، وثانيا عدم تيسر الكتب المستعان بها على هذا المرام لأني خلفتها بالمغرب...، وثالثها شغل الخاطر بأشجان الغربة...؛ فوعدته بالشروع في الطلب عند الوصول إلى القاهرة المُعزية، وأزمعت السير عن دمشق المعروفة بالمزية"[2].

وبالفعل فقد ابتدأ المقري في تأليف كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب" يوم الأحد 27 رمضان 1038هـ/1628م، ثم ألحق به فصولاً أتمها في ذي الحجة سنة 1039هـ/1629م، وقد سمّاه في بداية تأليفه: "عُرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب"[3].

وقسّمه إلى قسمين حيث قال في مقدمة الكتاب: "القسم الأول، فيما يتعلق بالأندلس من الأخبار المُتْرَعة الأكواب، والأنباء المنتحية صوب الصواب، الرافلة من الإفادة في سوابغ الأثواب، وفيه بحسب القصد والاقتصار، وتحرِّي التوسّط في بعض المواضع دون الاختصار ثمانية من الأبواب...".

أما القسم الثاني فقال إنه: "في التعريف بلسان الدين ابن الخطيب، وذكر أنبائه التي يَرُوق سماعُها، ويتأرّج نَفحُها ويَطيب، وما يُناسبُها من أحوال العلماء والأفراد، والأعلام الذين اقتضى ذكرهم شجون الكلام والاستطراد، وفيه أيضا من الأبواب ثمانية... "[4].

مصادر المقري من خلال كتاب نفح الطيب: اعتمد المقري في كتابة مُؤلَّفِه على مجموعة كبيرة وهامة من أمهات المصادر، البعض منها متوفر وموجود، والبعض الآخر منها مفقود، أو لم يصل إلينا منه إلا القليل، وهو بهذا فقد حفظ لنا مادة غزيرة وهامة من هذه الكتب المفقودة.

ومن المصادر التي اعتمد عليها على سبيل المثال لا الحصر نذكر كتاب "الإحاطة في أخبار غرناطة" و"أزهار الرياض في أخبار عياض" لابن الخطيب (ت776هـ/1374م)، وكتاب "اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى"، و"المغرب في حلى

المغرب" لابن سعيد المغربي (ت685هـ/1286م)، وكتاب "بدائع البدائه" لابن ظافر الأزدي (ت613هـ/1216م)، و"تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي (ت403هـ/1012م)، و"التكملة لكتاب الصلة" و"درر السمط في خبر السبط" لابن الأبّار القضاعي (ت 658هـ/1259م)، وكتاب "خريدة القصر وجريدة العصر" للعماد الكاتب الأصفهاني (ت356هـ/966م)، و"العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" لابن خلدون عبد الرحمن (ت808هـ/1406م)، و"قلائد العقيان في محاسن الأعيان" و"مطمح الأنفس ومسرح التأنُّس في مُلَح أهل الأندلس" للفتح ابن خاقان (ت529هـ/1134م)، و"المطرب من أشعار أهل المغرب" لابن دحية الكلبي (ت633هـ/1235م)، و"نيل الابتهاج بتطريز الديباج" لأحمد بابا التنبكتي (ت1032هـ/1622م)، و"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" لأبي العباس ابن خلكان (ت681هـ/1282م).

وقد أوضح المقري في مقدمته أن معظم المصادر التي اعتمد عليها في نفحه قد خلفها بالمغرب، ولم ينقل منها إلى مصر إلا القليل،إذ كانت فكرة الكتاب تجول في فكره وهو في المغرب حيث قال: "وتركت الجميع بالمغرب، ولم أستصحب معي منه ما يبيّنُ عن المقصود ويُعرب، إلا نزرا يسيرا علق بحفظي، وحَلَّيت بجواهره جِيدَ لفظي، وبعض أوراق سعد في جواب السؤال بها حظي، ولو حضرني الآن ما خَلَّفته مما جمعت في ذلك الغرض وألَّفته، لقرّت به عيونٌ وسُرَّت به ألباب..."[5].

ومن هذه المصادر التي خلّفها بالمغرب، واعتمد عليها عن طريق الواسطة كتاب "تحفة القادم" و"الحلة السيراء" لابن الأبّار، و"جذوة المقتبس" للحميدي (ت488هـ/1095م)، و"الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسام الشنتريني (ت542هـ/1147م)، و"الذيل والتكملة" لابن عبد الملك المراكشي (ت703 هـ/1303م)، و"زاد المسافر" لصفوان بن إدريس المرسي (ت598هـ/1201م)، و"الصلة" لابن بشكوال (ت578هـ/1182م)، و"صلة الصلة "لابن الزبير الغرناطي (ت708هـ/1308م)، وأخيرا كتب "المقتبس" و"المتين" و"أخبار الدولة العامرية" لابن حيان القرطبي (ت469هـ/ 1096م) وغيرها[6].

اقتباسات المقري من ابن حيان نموذجا: من المؤرخين الذين اعتمد عليهم أبو العباس المقري في تأليف كتابه ابن حيان القرطبي عمدة مؤرخي الأندلس في القرن الخامس الهجري(الحادي عشر الميلادي)، وقد اقتبس من مؤلفاته العديدة مادة علمية ثرية حفظت لنا الكثير من نصوصه، وبخاصة المفقودة منها كاملة أو جزئيا، ومن خلال ما سيأتي سأعمل على إيراد أهم النصوص التاريخية التي نقلها المقري من كتب ابن حيان.

1- كتاب "المقتبس": كان كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس من المصادر الهامة التي اعتمد عليها المقري في تأليف كتابه، ومن ذلك أنه ذكر رواية هامة اقتبسها من ابن حيان عن أولية بلاد الأندلس جاء فيها: "قال ابن حيان في المقتبس، ذكر رواة العجم أن الخضر، عليه السلام وقف على إشبان..."[7].

كما أفادنا بخبر سَوَاري كنيسة شنت مرية التي انفرد المقري بذكرها نقلا عن المقتبس حيث قال: "حكى ابن حيان أن فيها- يعني كنيسة شنت مرية- سبع سَوَارٍ من فضة خالصة لم ير الراؤون مثلها، لا يحيط الإنسان بذراعيه على واحدة منها مع طول مُفرط..."[8].

أما بخصوص أول من دخل الأندلس من المسلمين فقال المقري: "وذكر الحجاري وابن حيان وغيرهما أن أول من دخل جزيرة الأندلس من المسلمين برسم الجهاد طريف البربري- مولى موسى بن نصير- الذي تنسب إليه جزيرة طريف التي على المجاز؛ فغزاها بمعونة صاحب سبتة يليان النصراني، لحقده على لذريق صاحب الأندلس، وكان في مائة فارس وأربعمائة راجل، جاز البحر في أربعة مراكب، في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين، وانصرف بغنيمة جليلة، فعقد موسى بن نصير صاحب المغرب لمولاه طارق، ووجّهه مع يليان صاحب سبتة، انتهى"[9].

وذكر لنا أيضا الدوافع التي جعلت المسلمين يفتحون الأندلس نقلا عن ابن حيان حيث جاء فيه: "وقال ابن حيان: إن أول أسباب فتح الأندلس كان أن والى الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير- مولى عمه عبد العزيز- على إفريقية وما خلفها سنة ثمان وثمانين؛ فخرج في نفر قليل من المطوعة؛ فلما ورد مصر أخرج معه من جندها بعثا، وفعل ذلك في إفريقية، وجعل على مقدمته مولاه طارقا[10]، فلم يزل

يقاتل البربر ويفتح مدائنهم، حتى بلغ مدينة طنجة، وهي قصبة بلادهم، وأم مدائنهم، فحصرها حتى فتحها، وأسلم أهلها، ولم تكن فُتحت قبله، وقيل فتحت ثم استغلقت"[11].

وذكر بعدها مباشرة رواية أخرى عن ابن حيان قائلا: "وذكر ابن حيان أيضا استصعاب سبتة على موسى بتدبير صاحبها الداهية الشجاع يليان النصراني، وأنه في أثناء ذلك وقع بينه وبين لذريق صاحب الأندلس"[12].

اقتبس المقري أيضا رواية ابن حيان عن فتح طليطلة حيث قال: "قال ابن حيان، وانتهى طارق إلى طليطلة دار مملكة القوط، فألفاها خالية قد فرَّ عنها أهلها، ولجؤوا إلى مدينة بها خلف الجبل، فضم اليهود إلى طليطلة وخلف بها رجالا من أصحابه، ومضى خلف من فرّ من أهل طليطلة فسلك وادي الحجارة[13]، ثم استقبل الجبل فقطعه من فجٍّ سُمي به بعده فبلغ مدينة المائدة[14] خلف الجبل، وهي المنسوبة لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، وهي خضراء من زبرجد، حافاتها منها وأرجلها، وكان لها ثلاثمائة وخمسة وستون رجلا، فأحرزها عنده، ثم مضى إلى المدينة التي تحصّنوا بها خلف الجبل، فأصاب بها حليا ومالا، ورجع ولم يتجاوزها إلى طليطلة سنة ثلاث وتسعين، وقيل إنه لم يرجع بل اقتحم أرض جليقية واخترقها حتى انتهى إلى مدينة أسترقة، فدوّخ الجهة وانصرف إلى طليطلة، والله اعلم"[15].

وأورد لنا خبر آخر ملوك القوط وهزيمته أمام الفاتحين نقلا عن ابن حيان أيضا فقال: "قال ابن حيان في المقتبس: ذكر وأن لذريق لم يكن من أبناء الملوك ولا بصحيح النسب في القوط، وأنه إنما نال الملك من طريق الغصب والتسوّر عندما مات غيطشة الملك الذي كان قبله، وكان أثيرا لديه مكينا، فاستصغر أولاده لمكانه، واستمال طائفة من الرجال مالوا معه؛ فانتزع الملك من أولاد غيطشة واستبقاهم؛ فكانوا هم الذين دبّروا عليه- فيما ذكر- عندما لقي رجال العرب مقتحمين عليه بالأندلس من تلقاء بحر الزقاق، وعليهم طارق بن زياد مولى موسى بن نصير طماعة منهم في أن يؤدي ويخلص إليهم ملك أبيهم، فالتقوا بموضع يُدعى وادي لكة من أرض الجزيرة الخضراء من ساحل الأندلس القبلي مكان عبورهم، وذلك لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين من الهجرة؛ فانهزم القوط أعظم هزيمة وقعت

لملكهم لوذريق، وغلبت العرب على الأندلس؛ فصارت أقصى فتوحهم من أرض المغرب، ومصداق موعد نبيهم صلى الله عليهم وسلم الكفيل بفتح ما بين المشرق والمغرب عليهم بوحي الله تعالى إليه أنجزه لهم بفتح الأندلس ولله القوة"[16].

وأفادنا أيضا بخبر فتوح موسى بن نصير بعد طارق بن زياد حيث قال: "قال ابن حيان: ولما بلغ موسى بن نصير ما صنعه طارق بن زياد وما أتيح له من الفتوح حسده وتهيأ للمسير إلى الأندلس؛ فعسكر وأقبل نحوها ومعه جماعة الناس وأعلامهم، وقيل إنهم كانوا ثمانية عشر ألفا، وقيل أكثر؛ فكان دخوله إلى الأندلس في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين، وتنكّب الجبل الذي حله طارق، ودخل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن جبل موسى؛ فلما احتلّ الجزيرة الخضراء قال، ما كنت لأسلك طريق طارق، ولا أقفو أثره، فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يليان، نحن نُسْلِكك طريقا هو أشرف من طريقه، وندلك على مدائن هي أعظم خطرا وأعظم خطبا وأوسع غنما من مدائنه لم تفتح بعد، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى؛ فملئ سرورا، وكان شفوف طارق قد غمّه، فساروا به في جانب ساحل شذونة[17]، فافتتحها عنوة، وألقوا بأيديهم إليه..."[18].

واقتبس منه أيضا خبر نكبة موسى بن نصير فقال: "قال ابن حيان: إن الذي نكب موسى بن نصير هو سليمان بن عبد الملك صواب"، وقارنه المقري بما ذكره ابن خلكان في هذا السياق قائلا: "وأما ما حكاه ابن خلكان من أن المنكب له الوليد فليس بصحيح"، وختمها بقوله: "والله أعلم"[18].

وأفادنا المقري أيضا برواية فتوح موسى وطارق بعد اجتماعهما حيث قال: "قال ابن حيان: إن موسى اصطلح مع طارق وأظهر الرِّضا عنه، وأقرّه على مقدمته على رسمه وأمره بالتقدّم أمامه في أصحابه، وسار موسى خلفه في جيوشه، فارتقى إلى الثغر الأعلى، وافتتح سرقسطة وأعمالها، وأوغل في البلاد وطارق أمامه، لا يمران بموضع إلا فتح عليهما، وأغنمهما الله تعالى ما فيه، وقد ألقى الله الرعب في قلوب الكفرة فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح، موسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله ويكمل ابتداءه ويوثق للناس ما عاهدوه عليه، فلما صفا القطر كله وطامن نفوس من أقام على سلمه، ووطأ لأقدام المسلمين في الحلول به، أقام لتمييز ذلك وقتا وأمضى

المسلمين إلى إفرنجة، وغنموا وسلموا وعلوا وأوغلوا حتى انتهوا إلى وادي رودنة، فكانت أقصى أثر العرب ومنتهى موطئهم من أرض العجم..."[19].

2- اقتباسات المقري من كتاب أخبار الدولة العامرية: تضمن كتاب "نفح الطيب" نصوصا هامة من كتاب "أخبار الدولة العامرية" لابن حيان المفقود، وهو بهذا قد حفظ لنا هذه النصوص، ومنها ذكره لخبر بدايات المنصور بن أبي عامر حيث قال المقري: "وأما المنصور فقد ذكره ابن حيان في كتابه المخصوص بالدولة العامرية... وذكر الجميع أن أصله من قرية تَرْكش، وأنه رحل إلى قرطبة وتأدب بها، ثم اقتعد دكانا عند باب القصر يكتب فيه لمن يَعِنُّ له كتب من الخدم والمرافعين للسلطان، إلى أن طلبت السيدة صبح أم المؤيد من يكتب عنها، فعرفها به من كان يأنس إليه بالجلوس من فتيان القصر، فترقَّى إلى أن كتب عنها، فاستحسنته ونبّهت عليه الحكم، ورغَبت في تشريفه بالخدمة؛ فولاه قضاء بعض المواضع؛ فظهرت منه نَجابة؛ فترقى إلى الزكاة والمواريث بإشبيلية، وتمكن في قلب السيدة بما استمالها به من التحف والخدمة ما لم يتمكن لغيره، ولم يُقصِّر- مع ذلك- في خدمة المصحفي الحاجب، إلى أن توفي الحكم وولى ابنه هشام المؤيد، وهو ابن اثنتي عشر سنة؛ فجاشت الروم؛ فجهز المُصحفي ابن أبي عامر لدفاعهم، فنصره الله عليهم، وتمكن حبّه من قلوب الناس"[20].

وقال أيضا نقلا عن ابن حيان: "وقال غير واحد: إنه صنع يومئذ قصرا من فضة لصبح أم هشام، وحمله على رؤوس الرجال فجلب حبّها بذلك، وقامت بأمره عند سيدها الحَكم، وحدّث الحَكم خواصه بذلك وقال: إن هذا الفتى قد جلب عقول حرمنا بما يُتْحِفُهنَّ به؛ قالوا، وكان الحكم لشدة نظره في عالم الحدثان[21] يتخيّل في ابن أبي عامر أنه المذكور في الحدثان، ويقول لأصحابه، أما تنظرون إلى صُفْرة كَفَّيه؟ ويقول في بعض الأحيان: لو كانت به شَجَّة لقلت إنه هو بلا شكّ، فقضى الله أن تلك الشجّة حصلت للمنصور يوم ضربه غالب[22] بعد موت الحكم بمدة"[23].

واقتبس منه أيضا خبر النَّفْرَة بين غالب وابن أبي عامر حيث قال: "وأما غالب الناصري فإنه حضر مع ابن أبي عامر في بعض الغزوات، وصعدا إلى بعض القلاع

لينظرا في أمرها؛ فجرت محاورة بين ابن أبي عامر وغالب؛ فسبّه غالب وقال له: يا كلب أنت الذي أفسدت الدولة وخربت القلاع، وتحكمت في الدولة، وسلّ سيفه فضربه، وكان بعض الناس حبس يده؛ فلم تتم الضربة وشَجَّه، فألقى ابن أبي عامر نفسه من رأس القلعة خوفا من أن يجهز عليه؛ فقضى الله تعالى أنه وجد شيئا في الهوى منعه من الهلاك؛ فاحتمله أصحابه وعالجوه حتى برئ، ولحق غالب بالنصارى فجَيَّش بهم، وقابله ابن أبي عامر بمن معه من جيوش الإسلام؛ فحكمت الأقدار بهلاك غالب، وتمَّ لابن أبي عامر ما جَدَّ له، وتخلصت دولته من الشوائب"[24].

واقتبس من ابن حيان أيضا أحداث الغزوة الثامنة والأربعين للمنصور ابن أبي عامر المعروفة بغزوة شانت ياقب[25] حيث قال: "وعند تناهي المنصور بن أبي عامر في هذا الوقت على الاقتدار والنصر على الملوك الطاغية دمّرها الله سما إلى مدينة شنت ياقب قاصية غليسية، وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا وللكعبة المثل الأعلى، فيها يحتفلون وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها، ويزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقب الحواري أحد الإثني عشر رحمهم الله.

وكان أخصّهم بعيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وهي مدفن ياقوب فهم يسمونه أخا الرب تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، وياقب بلسانهم يعقوب، وكان أسقفا ببيت المقدس؛ فجعل يستقري الأرضين داعيا لمن فيها فجازإلى الأندلس حتى انتهى إلى هذه القاصية ثم عاد إلى أرض الشام فمات بها وله مائة وعشرون سنة شمسية فاحتمل أصحابه رمته فدفنوها بهذه الكنيسة التي كانت أقصى أثره.

ولم يطمع احد من ملوك الإسلام في قصدها ولا الوصول إليها لصعوبة مدخلها وخشونة مكانها وبعد شقتها؛ فخرج المنصور إليها من قرطبة غازيا بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وهي غزوته الثامنة والأربعون.

ودخل على مدينة قورية فلما وصل إلى مدينة غليسية وافاهُ عدد عظيم من القوامس المتمسكين بالطاعة في رجالهم وعلى أتم احتفالهم؛ فصاروا في عسكر المسلمين، وركبوا في المُغاورة سبيلهم، وقد كان المنصور تقدّم في إنشاء أسطول كبير

في الموضع المعروف بقصر أبي دانس من ساحل غرب الأندلس، وجهّزه برجاله البحريين وصنوف المترّجلين، وحمل الأقوات والأطعمة والعدد والأسلحة استظهارا على نفوذ العزيمة إلى أن خرج بموضع برتقال على نهر دويرة فدخل في النهر إلى المكان الذي عمل المنصور على العبور منه، فعقد هنالك من هذا الأسطول جسرا بقرب الحصن الذي هنالك، ووجّه المنصور ما كان فيه من الميرة إلى الجند؛ فتوسعوا في التزود منه إلى أرض العدو.

ثم نهض منه يريد شنت ياقب فقطع أرضين متباعدة الأقطار وقطع بالعبور عدة أنهار كبار وخلجان يمدها البحر الأخضر، ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فرطارش وما يتصل بها، ثم أفضى إلى جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك فيه ولا طرق، لم يهتد الأدلاء إلى سواه.

فقدّم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه؛ فقطعه العسكر وعبروا بعده وادي مِنْيُهْ، وانبسط المسلمون بعد ذلك في بسائط عريضة وأرضين أريضة، وانتهت مغيرتهم إلى دير قسطان وبسيط بلنبو على البحر المحيط، وفتحوا حصن شنت بَلايُه وغنموه، وعبروا سباحة إلى جزيرة من البحر المحيط لجأ إليها خلق عظيم من أهل تلك النواحي؛ فسبوا من فيها ممن لجأ إليها.

وانتهى العسكر إلى جبل مُراسية المتصل من أكثر جهاته بالبحر المحيط؛ فتخللوا أقطاره واستخرجوا من كان فيه وحازوا غنائمه، ثم أجاز المسلمون بعد هذا خليجا في معبرين أرشد الأدلاء إليهما ثم نهر أيلة ثم أفضوا إلى بسائط واسعة العمارة كثيرة الفائدة، ثم انتهوا إلى موضع من مشاهد ياقوب صاحب القبر تلو مشهد قبره عند النصارى في الفضل، يقصد نساكهم له من أقاصي بلادهم ومن بلاد القبط والنوبة وغيرهما؛ فغادره المسلمون قاعًا.

وكان النزول بعده على مدينة شنت ياقب البائسة، وذلك يوم الأربعاء لليلتين خلتا من شعبان؛ فوجدها المسلمون خالية من أهلها؛ فحاز المسلمون غنائمها، وهدموا مصانعها وأسوارها وكنيستها وعفوا آثارها، ووكل المنصور بقبر يَاقُب من يحفظه ويدفع الأذى عنه، وكانت مصانعه بديعة محكمة؛ فغُودِرت هشيمًا كان لم تَغْنَ بالأمس، وانتسفت بعوثه بعد ذلك سائر البسائط، وانتهت الجيوش إلى شنت

مانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط، وهي غاية لم يبلغها قبلهم مسلم ولا وطئها لغير أهلها قدم؛ فلم يكن بعدها للخيل مجال ولا وراءها انتقال.

وانكفأ المنصور عن باب شنت ياقُب وقد بلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله؛ فجعل في طريقه القصد على عمل بَرمُند بن أُردون ليستقرّ عائثًا ومفسدًا حتى وقع في عمل القوامس المُعاهدين الذين في عسكره؛ فأمر بالكفّ عنها، ومرّ مُجتازا حتى خرج إلى حصن بليقية من افتتاحه؛ فأجاز هنالك القوامس بجملتهم على أقدارهم، وكساهم وكَسا رجالهم، وصرفهم إلى بلادهم، وكتب بالفتح من جليقية...، ولم يجد المنصور بشنت ياقُب إلا شيخا من الرهبان جالسا على القبر؛ فسأله عن مقامه فقال، أُؤانس يعقوب؛ فأمر المنصور بالكف عنه"[26].

اقتبس المقري في كتابه أيضا خبر زيادة المنصور في جامع قرطبة، وقال إنه اقتبس النص من ابن بشكوال فقال: "ومن أحسن ما عاينه الناس في بينيان هذه الزيادة العامرية أعلاج النصارى مُصفَّدين في الحديد من أرض قشتالة وغيرها، وهم كانوا يتصرّفون في البنيان عوضًا من رَجَّالة المسلمين إذلالا للشرك وعزة للإسلام، ولما عزم على زيادته هذه جلس لأرباب الدور التي نقل أصحابها عنها بنفسه؛ فكان يُؤْتى بصاحب المنزل فيقول له، إن هذه الدار التي لك يا هذا أريد ابتياعها لجماعة المسلمين من مالهم ومن فَيْئِهم لأزيدها في جامعهم وموضع صلاتهم؛ فشَطِّطْ واطلب ما شئت؛ فإذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يُضاعف له وأن تُشتري له بعد ذلك دار عوضا منها حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة فقالت، لا أقبل عوضا إلا دارا بنخلة؛ فقال، تُبْتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال؛ فاشتريت لها دار بنخلة، وبولغ في الثمن، وحكى ذلك ابن حيان أيضًا"[27].

وذكر المقري أيضا خبر المنصور ابن أبي عامر مع الجوهري المشرقي فقال: "عن ابن حيان قال: وذلك أن رجلا جوهريا من تجار المشرق قصد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثير وأحجار نفيسة؛ فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه، ودفع إلى التاجر الجوهري صُرَّته، وكانت قطعة يمانية فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شط النهر؛ فلما توسطها واليوم قائظٌ وعرقه منصبٌّ دعته نفسه إلى التبرّد في النهر؛ فوضع ثيابه وتلك الصرّة على الشطّ؛ فمرّت حدأة فاختطفت الصرّة تحسبها لحما،

وصاعدت في الأفق بها ذاهبة؛ فقطعت الأفق الذي تنظر إليه عين التاجر؛ فقامت قيامته وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة؛ فأسرّ الحزن في نفسه ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها.

وحضر الدفعُ إلى التجار فحضر الرجل لذلك بنفسه فاستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدّة العارضة؛ فسأله المنصور عن شأنه فأعلمه بقصته؛ فقال له: هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر؟ فكنا نستظهر على الحيلة؛ فهل هُديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها؟ قال: مرّ مُشرِقًا على سَمْتِ هذا الجبل الذي يلي قصرك، يعني الرملة؛ فدعا المنصور شرطيه الخاص به فقال له: جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة؛ فمضى وجاء بهم سريعًا؛ فأمرهم بالبحث عمّن غير حال الإقلال منهم سريعا، وانتقل عن الإضافة دون تدرج؛ فتناظروا في ذلك ثم قالوا: يا مولانا ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناولون السَّبْق بأقدامهم عجزا عن شراء دابة؛ فابتاع اليوم دابة، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة؛ فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب.

فحضر الرجل بعينه بين يدي المنصور فاستدناه والتاجر حاضر وقال له: سببٌ ضاع منا وسقط إليك، ما فعلت به؟ هو ذا يا مولاي، وضرب بيده إلى حُجْزَة[28] سراويله فأخرج الصرّة بعينها؛ فصاح التاجر طربًا، وكاد يطير فرحًا؛ فقال له المنصور: صِف لي حديثها؛ فقال: بينا أنا اعمل في جناني تحت نخلة إذ سقطت أمامي فأخذتها وراقني منظرها؛ فقلت: إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار؛ فاحترزت بها ودعتني فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل عيونا كانت معها مصرورة وقلت: أقل ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها.

فأعجب المنصور ما كان منه وقال للتاجر: خُذ صُرّتك وانظرها، واصدقني عن عددها ففعل وقال: وحقّ رأسك يا مولاي ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها وقد وهبتها له؛ فقال المنصور: نحن أولى بذلك منك ولا ننغص عليك فرحك، ولولا جمعه بين الإصرار والإقرار لكان ثوابه موفورا عليه.

ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضا من دنانيره وللجَنّان بعشرة دنانير ثوابًا لتأنّيه عن فساد ما وقع بيده، وقال: لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاء، قال:

فأخذ التاجر في الثناء على المنصور وقد عاوده نشاطه وقال: والله لأُبُثَّنَّ في الأقطار عظيم ملكك ولأُنَبِئَنَّ أنك تملك طير أعمالك كما تملك إنسها؛ فلا تعتصم منك ولا تمتنع، ولا تؤذي جارك؛ فضحك المنصور وقال: اِقْصِد في قولك يغفر الله لك؛ فعجب الناس من تلطف المنصور في أمره، وحيلته في تفريج كربته"[29].

- **اقتباسات المقري من كتاب المتين:** اقتبس مؤلف نفح الطيب من كتاب المتين الذي ألفه ابن حيان القرطبي خبر الوقعة العظمى بأهل مدينة بربشتر حيث قال: "قال ابن حيان: وكان تغلب العدو- خذله الله تعالى- على بَرْبَشْتر قصبة بلد بُرْطانية، وهي تقرب من سرقسطة، سنة ست وخمسين واربعمائة..."[30].

خاتمة: من خلال هذه النصوص المختارة من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب الذي ألفه أبو العباس أحمد المقري تتبين القيمة العلمية لهذا الكتاب، الذي رغم تأخر مؤلفه عن تاريخ الأحداث التي كتب عنها إلا أنه يكتسي أهمية كبيرة في التأريخ للأندلس عامة ولسان الدين ابن الخطيب خاصة بالنظر إلى اعتماده على أمهات المصادر التي تؤرخ لبلاد الأندلس، وبخاصة منها التي تعتبر في عداد المصادر المفقودة أو المبتورة، ومنها النصوص الهامة التي حفظها لنا المقري من مؤلفات حامل لواء تاريخ الأندلس ابن حيان القرطبي، وهي النصوص التي توفر للباحث مادة يستطيع من خلالها كتابة بحوثه حول هذا التاريخ، وحتى إعادة بعث بعض المصادر المفقودة.

إن النصوص التي انتقيناها كنماذج للتأكيد على أهمية محتويات كتاب المقري الذي حفظ لنا بذلك مادة مصدرية هامة تساعد الباحثين في سد الكثير من الثغرات التي تكتنف التاريخ الأندلسي، وتساعدهم على تأريخ كامل للوجود الإسلامي بالعدوة الأندلسية.

الهوامش:

1- المقري التلمساني أبو العباس أحمد بن محمد- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب- تحقيق مريم قاسم الطويل ويوسف علي طويل- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 1415هـ- 1995م- ج1 ص75-76.

2- المقري- نفسه- ج1 ص76- 80-85.

3- نفسه- ج1 ص160.

4- نفسه- ج1 ص116- 120.

5- نفسه- ج1 ص112.

6- نفسه- ج1 ص112.

7- نفسه- ج1 ص138-139.

8- نفسه- ج1 ص278.

9- نفسه- ج1 ص220.

10- طارق، هو طارق بن زياد بن عبد الله بن رفهو بن ورفجوم بن ينزغاسن بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو، فاتح الأندلس سنة 92هـ/711م، للمزيد من التفاصيل عنه ينظر ابن عذاري المراكشي أبو العباس- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب- تحقيق ومراجعة ج. س. كولان و إ. ليفي بروفنسال- دار الثقافة- بيروت- ط3- 1983م- ج2 ص5/ بوباية عبد القادر- البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري(11م)- دار الكتب العلمية- بيروت- ط1- 2011م- صص44- 49.

11- نفسه- ج1 ص220.

12- نفسه- ج1 ص 220.

13- وادي الحجارة، وتعرف بمدينة الفرج، وهي بين الشرق والجنوب من قرطبة، بينها وبين طليطلة ستون ميلا، وهي مدينة حسنة كثيرة الأرزاق، ولها أسوار حصينة. مجهول- جغرافية وتاريخ الأندلس- تحقيق عبد القادر بوباية- مؤسسة البلاغ للنشر والدراسات والأبحاث- الجزائر- 2013م- ص141- 142/الإدريسي أبو عبد الله الشريف- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق- مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- 1414هـ- 1994م- ج2 ص553.

14- نفسه- ج1 ص255.

15- نفسه- ج1 ص240-241.

16- نفسه- ج1 ص259.

17- شذونة، مدينة من قواعد الأندلس، ذات خصب كثير ومرافق عظيمة المنافع في البر والبحر، بلد زرع وضرع وزيتون وخيرات. مجهول- المصدر السابق- ص151.

18- نفسه- ج1 ص262.

19- نفسه- ج1 ص262.

20- المقري- نفح الطيب- ج1- ص382.

21- الحِدْثان، يقال حِدْثان الشباب وحِدْثان الأمر، أوله وابتداؤه. مجمع اللغة العربية- المعجم الوسيط- مكتبة الشروق الدولية- القاهرة- ط4- 1426هـ- 2005م- ص.160

22- غالب، مولى الحكم المستنصر بالله، وقائد الثغر الأعلى، كانت قاعدته مدينة سالم، تزوج المنصور ابن أبي عامر حاجب هشام المؤيد بالله ابنته أسماء، ثم استعان بجعفر بن على الأندلسي للقضاء عليه. المقري- نفح الطيب- ج1 ص366، ص382.

23- المقري- المصدر السابق- ج4 ص76.

24- المقري- المصدر السابق- ج4- ص80.

25- شانت ياقب، كنيسة عظيمة مشهورة في ثغور ماردة، مبنية على جسد يعقوب الحواري، يذكرون أنه قُتل في بيت المقدس، وأدخله تلامذته في مركب، يأتيها الروم من جميع الأقطار يحجّون إليها، وليس بعد كنيسة بيت المقدس أعظم منها. الحميري محمد بن عبد المنعم- الروض المعطار في خبر الأقطار- تحقيق إحسان عباس- مكتبة لبنان- بيروت- 1975م- ص348/الإدريسي- نزهة المشتاق- ج2 ص728.

26- المقري- المصدر السابق- ج1- ص396-399.

27- المقري- نفح الطيب- ج2 ص85.

28- حُجْزه، الحُجْزَة موضع شدّ الإزار من الوسط، وهي موضع التُكَّة من السراويل، ويُقال أخذ بحُجْزَته أي التجأ إليه واستعان به. المعجم الوسيط- ص158.

29- المقري- نفح الطيب- ج1 ص394- 396.

30- المقري- نفح الطيب- ج6 ص208.